على هامش « الوجودية »

راعي الغنم في باريس

للدكتور علي شرف الدين

كانت بقايا الشمس الغاربة ترف في جباه المآثر القائمة في ميدان سان جرمان ، فيجري ذائب نضارها في سواد عرانينها ، كما يجري الحلم الشاحب الحزين في لمة طافت بها الذكريات . وكان الليل قد أخذ ينشر ذوائبه الغبش على جبين النهار، ويغزو بسكونه الرهيب ضجة الحضارة الصاخبة . بينما كان راعي الغنم قد انتحى جانباً مستنداً إلى جذع شجرة هناك ، ومن حوله أسرته الخالدة بؤلفها عنزاته الأربع ، وكلبه القروي : أسرة هي رمز الوفاء في كتاب الأيام

كانت صفارته ترسل أنغاماً واهنة لا تكاد تصل إلى السمع إلا بشيء من عمل النفس ، ولكنها على هوادتها كانت تصعد في السماء رائعة لتستحيل إلى دعوات ضارعة في عالم اللانهاية والخلود

كانت ألحانه لا تحتاج إلى خيال شاعر ، ليردها إلى عالم آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه ، ولقد ذكرت عندها قول أندريه جيد في السيمفوني باستورال ، وهو يجري آراءه في الحياة والفن على لسان الباستير ، انه يرى « أن الموسيقى لا تصور العالم كما كان ، ولكنها تصوره كما يمكن أن يكون لو خلا من الشرور والخطايا»

كان لألحان الراعي روعة في النفس يزيدها إقبال الليل في سكونه ، حتى لكأنها دعوة السماء إلى القلب ، فانعطفت قبالته وأحسست كأنما أنظر في باريس إلى أثر مقدس ، يثنيني عن التقدم إليه جلال الزمن . وروعة الماضي . كان هو الراعي في كل شيء غير سراويلات لم يشهدها الشرق في رعاته ، أوربي تثمره الحضارة المادية ، وتأخذ حياته من أقطارها ولكنه كان منها بعيداً ، وفيها زاهدا لقد ورث عن أبيه « الراعي الخالد » هذا الوجه الهادئ ، الذي لفحته حرارة الصحراء ، فتركت فيه هذا الرضا العميق ، يكشف عن نفس يعمرها اليقين والأمل . ولقد كنت تقرأ في أسارير وجهه شيئا آخر أقوى من اليقين والثقة ، كنت تقرأ فيها فلسفة العزلة التي تظهر فيها النفس الانسانية أقوى ما تكون فهماً وإشراقاً . فيلسوف لم يأخذ فلسفته عن منهج ديكارت ، ولكنه أخذها عن أستاذ لا يضل أبدا : عن الطبيعة التي اقتنت أجداده أبلغ الحكمة . لقد عرف الأمل في الشروق ، وعرف العراك والألم والصبر في رائعة النهار ، كما عرف الهدوء والرضا في صفحة الغروب ، وسمع خطيب الليل الصامت يلقي على الإنسانية فلسفة الجنوح والاستسلام إلى قوة غالبة ، يجد في جوارها السلم والعافية ، واستقام له من كل ما قرأ في كتاب الوجود فلسفة راسخة قوية ، لا يغربها الأمل ، ولا يوهنها اليأس ، لأنها أقوى من إغراء الأمل ، وأسمى من تخاذل اليأس . إنها فلسفة الرضا المقرون بإشراق الحقيقة ، يطل منها على هذه الحضارة الصاخبة المجنونة

لم تكن أنغاما تتألف من مقاطع ، ولكنها صلوات القلب في محراب الطبيعة ، تتألف من ضراعات الرهبان ، ونسك العابدين ، لست أدري أهي حفيف ذكريات الزمن البعيد، أم أنها الترانيم الهامسة منذ الأزل في قضاء الوجود . انها رسول السلام والأمن أقبل من السماء إلى الأرض ليغفر ما جرحت أيدي الحضارة وليبارك الضعاف الأقوياء الذين شرعوا أقوم المثل في الصبر والرضا ، حتى إذا أقبل الليل وجدوا فيه متنفساً لآلامهم ودموعهم . .

قال لي الراعي في صفارته : « إن أمانينا ستظل رسول العذاب إلى قلوبنا ، وستظل سبب شقوتنا في الحياة ، حتى نغير النظرة بأخرى ، وحتى نستبدل مقياس السعادة بآخر يمت إلى النفس بصلة ، وحتى ننصرف طوعا وترفعاً عن روعة لو اختبرناها لظهر زيفها وباطلها . . . »

« إن فلسفتي هي أقوم ما انتهت اليه الفلسفة المتحضرة : حياة ساذجة لا صنعة فيها ، وعزوف عن الظاهر البراق لا زهداً ولا يأسا ، ولا حتى تدينا ، ولكن إيثارا للحقيقة ، وإدراكا لجمالها ، وتلبية لنداء النفس المطبوعة التي لا تخطيء في الدعاء . . »

« إن فلسفتي لا تعمى بغير تشهد الكون في جملته ، وما يحدث

قطر عن مم يتألف النشيد ، ولا حاولت أن تعرف مقاطع نغمه ، وضروب إيقاعه. وإذا جهلت أنا شيئا من هذا فان ذلك لايحرمنى السرور بجمال الإنشودة فى جملتها ، وإن عناصر الكون الحافلة بالأسرار لتتجمع كلها فى لحن واحد ماأيسر أن تحس النفس جماله، وتنعم بإدراكه ، فعلام إذاً أشق فى تحليل المقاطع ، ومناقشة العناصر . . »

« إن الوجود فى فلسفتنا معشر الرعاة ترنيمة تنفح بعبير السماء ، تذيعها الطبيعة فى لحنها صباح مساء . إنه النهر الجارى تصفق فى جوانبه الجداول ، وتنغم الطير على شاطئيه ، ما سألت قط عن منبعه ولا مصبه ، ولكنى أسير مع التيار شاديا مغردا ، أسبح بهذا النعيم ، وأشيد بجمال الحقيقة . . »

« وماذا يعنينى أن أبحث كما يبحث هذا الرجل المعذب (بالوجودية) ، انه يشق ويشق الناس معه ، ليثبت ان الوجود يسبق الجوهر ، وان الإنسانية لهذا محكوم عليها بالألم الشقاء . إنه لا يفهم الإنسانية إلا على هذا النحو الأسود القاتم ، ولا يراها غير فريسة للآلام ، فراح يلتمس لنا فى فلسفته ، وقصصه ؛ ومسرحياته كل جرح دام من جراح الإنسانية المعذبة ، وسارت باريس فى ركابه تحمل المناظر السوداء ، لترى من خلالها هذا الوجود ، حتى فترت صبوات القلوب العامرة باليقين والأمل . . »

« وإذا كان « عميد الوجودية » قد زحم مؤلفاته بالمآسى الإنسانية التى يدعم بها مذهبه فإنه نسى الكثير من مسرات الإنسانية . وما الخير فى فلسفة لا تقوم إلا على تذكر الشرور والآلام، وتغفل عن مباهج الإنسانية الروحية؟ فقطعت عليه لحنه:

« أتنكر الألم فى الوجود أيها الراعى ؟ »

قال : «أفتنكر أنت أن أكثر من النصف فى الوجود خير وبركة وجمال ؟ رويدك فإن « الوجودية » تنكر المستقبل المسطور فى السماء ، وتلقى به بين يدى الإنسان ليصنعه بنفسه (١)

قلت : فإنه يسرف فى التعبير ، ويستخدم من الألفاظ كفيلسوف ما يؤيد به مذهبه ، وإنه ليريد أن ينسب (الاختيار) إلى الإنسان ، وأن يعقد أمله بالأعمال فإن لها عنده قيمتها وأثرها. قال : فسنعود إذاً إلى حديث الاختيار أو الجبر ، وما أعرف أن الفلسفة العربية قد قصرت فى مناقشتها ، ففيم إذاً هذه الضجة ؟

لقد كتب ابن سينا عن الجوهر والوجود ، يعارنه فى ذلك عقل الفيلسوف وخبرة الطبيب . كان فيلسوفا وطبيبا يدرك النفس ، كما يدرك المنزل الذى تسكن فيه ، فآخى بين الروح والمادة ، وزاوج بين المجهول والمعروف ، واستقام له من ذلك منهج قويم.. سكت الراعى قليلا ثم أقبل فى الحديث وقد جرى شعاع من النور فى أسارير وجهه : « إن للشرق طريقة حسنة فى فهم الوجود . ولقد حل المشكلة هذا الهندى المبارك ، وضرب تاغور على الحياة بسرادق من الخير والجمال ، وأنكر وجود الشر فيها ، وإذا كان له وجود فإنه عدم فى عالم الحقيقة ، إنه كالخطأ فى عملية حسابية له وجود على الأوراق ، ولا وجود له فى الحقيقة . إنه كمن يحضر حفلا خاصا ، ولا يحمل معه بطاقة الدعوة ممن أقام الحفل . إنه موجود بين المدعوين ولكنه وجود لا تعتبره الحقيقة . . ثم نظر إلى قائلا : « أترى ما قال تاغور هو الشعر ، وهبه شعرا ! ولكنه حسن جميل .. »

« لا يا سيدى إن لى زوجة جميلة تنتظرنى ، وإنها من مباهج الحياة عندى ، فلم أنقب وأحصى ما لقيت من ألم فى النهار ، وأنا أعرف أن سرورى بها يعدل أضعاف ما لقيت من ألم فى النهار ! وإن لى أصدقاء من الرعاة نسمر معا ، ونتحدث عن مملكتنا المسحورة ذات الروح والجداول والطير .. »

«إن الرومانتسم فى أدبنا الفرنسى لم تطبع بهذا الطابع الشاحب ذى المزاج الحزين إلا بعد أن أطلق الشعراء تأملهم العميق فى الوجود ، وغالوا فى التحليق بنفوسهم وهم يتحدثون إلى الطبيعة، حتى عبروا منطقة الجمال إلى مجاهل الفلسفة ، وانتهوا فى تأملهم إلى السؤال : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟ فلما عجزت عقولهم طوى العجز نفوسهم على ذرانها ، فتألموا ، واختلطت أغانى الجمال فى شعرهم بنبرات من الحزن ، تكشف عن نفس معذبة قبل أن تكشف عن نفس متأثرة حساسة

سكت قليلا بينما كانت تخفق فى جبينه طيوف من الحلم والذكريات ، ومسمعته يردد فى صوت خافت عبارة جيته :

(١) الوجودية بول سارتر ص ٣٨ ، ٦٢